الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٩ —

الفلسفة الهندية

تمتاز بلاد الهند بخصوبة أوديتها ، وتعدد نباتاتها وكثافة غاباتها وتعقد مسالكها ، وكثرة منعرجاتها ومصاعدها ومهابطها ، وتباين أجوائها ومناخاتها ، ووفرة التناقض الطبيعي في أرضها وسمائها ، فبينما ترى فيها جبالا شاهقة تتجاوز السحاب سموا ، وهضبات متفرقة تفصل بعضها عن بعض هوى سحيقة وحفر طبيعية عميقة ، وتلالا تتخللها من جهة كثبان ضخمة وتعترضها من الجهة المقابلة صخور عظيمة النتوء صعبة الاجتياز ، إذ بك ترى إلى جانب هذا أودية مبسوطة ومروجاً باسمة تتباهى بما تزدان به من ألوان الزهور وأفانين الثمار والبقول . وكذلك جوها لا تكاد تحس بدفئه وحرارته حتى يفاجئك برده ورطوبته ، بل إن الانسان — كما أنبأني أحد الذين أقاموا في هذه البلاد — قد يشكو من شدة الحرارة التي يحس بها في جنبه الأسفل الذي يلي الفراش بينما يألم أشد الألم من الرطوبة التي تصب على جنبه الأعلى . ولاريب أن هذه طبيعة غريبة قد يدهش لها المصري الذي اعتاد أن يشاهد زيادة النيل ونقصانه ، واشتداد البرودة وتوسطها ، وارتفاع الحرارة وهبوطها ، وحرارة الشمس ووداعتها ، وحلول الفصول وارتحالها ، كل ذلك في أوقات منظمة محددة لا تختلف إلا لشذوذ نادر يعلله العلماء حينا ويعجزون عن تعليله حينا آخر .

كان لهذا التعدد في المناظر والمظاهر الطبيعية أثر بارز في عقلية الهنود على رغم ما يوجهه بعض العلماء إلى نظرية تأثير المناظر في العقليات من طعون واعتراضات يحوطون بها من شأنها ويحاولون إثبات الأثر كله للعنصر ومواهبه الفطرية

ومهما يكن من الأمر فقد استطاع التاريخ أن يتغلغل بالمدنية الهندية في أغوار الماضي مدى ثلاثين قرنا قبل المسيح إذ يحدثنا أن تلك الأودية المخصبة كانت في ذلك العهد مأهولة بقوم من الجنس السامي لهم مدنيتهم وديانتهم وتفكيرهم ، وأن هؤلاء القوم قد ساهموا في بناء صرح المدنية العالمية بنصيب وافر ، وكان لهم في تاريخ الفكر البشري مجهود جبار ظل مجهولا أو غامضا على الأقل حتى قام العلماء الأثريون والمستشرقون بمكتشفاتهم العلمية فأماطوا اللثام عن هذه الحقائق الناصعة وساعدوا البحث الحديث على رد الأشياء إلى أصولها ، وأبانوا أن الديانات الهندية المتأخرة والفلسفات العويصة التي ظهرت في تلك الأصقاع إنما تتصل بالعناصر السامية القديمة أضعاف اتصالها بالمنتجات الآرية التي غمرت الهند بعد الفتح الأجنبي

يحدثنا بعض المؤرخين أن الهند كانت قبل هذا الفتح الآري قبائل متفرقة او شعوبا صغيرة ، لكل شعب حاكمه وقوانينه وعقائده وعاداته ، وأن الوحدة السياسية والعمرانية إنما وجدت فيها على أيدي أولئك الفاتحين « الآريين » الذين يزعم الأستاذ « ماسون » أنهم كانوا في أزمنة لا تعيها ذاكرة التاريخ يقطنون وادي « الدانوب » المخصب في تلك العهود الغابرة ، ثم عبروا البوسفور إلى آسيا لضرورة العيش الذي ألجأهم إليه محل وقع في وطنهم قبل هذه الهجرة التي لم تكن مألوفة لديهم على عكس الشعوب الأسيوية الرحالة . وما زالوا يتابعون سيرهم انتجاعا للغيث فعبروا الفرات وواصلوا الزحف حتى « البنجاب » وأخذوا يغيرون على تلك البلاد الخصبة الوادعة حتى بسطوا سلطانهم عليها وأسسوا بها وحدات قوية يصح أن تسمى دولا ، وكان ذلك حوالي القرن الخامس عشر قبل المسيح . ومنذ ذلك العهد بدأت الهند في مرحلة جديدة في الدين والفلسفة والعلم والسياسة ، وهذه المرحلة هي التي تشغل الآن أذهان الباحثين المشتغلين بدراسة الفلسفة الهندية

أما الأغصان الأخرى التي بقيت في الدانوب من تلك الدوحة الآرية فقد انتشرت في أوروبا يحمل كل غصن منها اسما خاصاً به مثل « السيلت » و « الجرمان » و « السلاف » و « اللاتين » و « الهيلين » ، وقد خالف أصحاب هذه الفكرة الرأي القديم القائل بأن أصل العنصر الآري كان يقيم في بلاد الهند ثم ارتحلت منه بطون إلى أوروبا فكانت منشأ هذه الأجناس السابقة الذكر . ولاريب أن لكل منهما أدلة خاصة غير أن النار لم تكن هي الإله الأوحد عند هؤلاء القوم

تؤيد مذهبه ، لأن مجرد اتفاق هذه الأجناس الأوروبية مع آرى الهند فى اللغة ، السنسكريتية ، وفى بعض العقائد والنظريات لا يؤيد الرأى الأول ولا ينصر الثانى ؛ غير أن أصحاب الرأى الحديث يزعمون أن مكتشفات حديثة يرجع تاريخها إلى القرن الرابع عشر قبل المسيح تؤيدهم فيما ذهبوا إليه من أن الهجرة كانت من أوروبا إلى آسيا . وسواء أصح الرأى الأول أم الثانى فان الاستكشافات الحديثة التى قام بها العلماء منذ أن بدأها الأستاذ «بانيرجى» الهندى ، وثنى على أثره فيها « سيرجوهن » تسمح لنا بأن نؤكد أن مدنية الهند الغابرة تمتد جذورها فى الماضى أكثر من ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح ، ولكن هذه المدنية التى كانت قد ازدهرت فى وادى « البنجاب » قبل احتلال « الآريين » لتلك الأصقاع بأكثر من خمسة عشر قرنا قد اندثرت قبل هذا الاحتلال بزمن لا يعرف التاريخ تحديده بالضبط .

ويؤكد فريق من الباحثين أن تلك المدنية القديمة كانت راقية رقياً يسمح لها بأن تصعد إلى ما هو أدنى من صفوف المدنية الفرعونية بقليل ، ويجعل « الآريين » الفاتحين إلى جانب الوطنيين برابرة متوحشين . وأنت ترى أن هذا الرأى يخالف ما نقلناه لك آنفاً من أن السكان الأصليين كانوا شعوباً متناثرة أقل مدنية من الفاتحين ، وأن « الآريين » هم أول من حققوا لبلاد الهند الوحدة السياسية والاجتماعية .

ومهما يكن من شىء فقد احتل أولئك « الآريون » تلك الاصقاع المتمدينة وطغوا على مدنيتها وديانتها طغياناً محاهما من صحائف أذهان الخاصة وإن كان لم يستطع أن يمحوهما من صحائف الوجود ، بل ولا من أذهان العامة والجماهير .

هذا ، وللعلماء الباحثين موطد الأمل فى أن يصلوا على مر الزمن إلى حل رموز الآثار الهندية القديمة التى أنشأها الوطنيون قبل الاحتلال الأجنبى ، فاذا وصلوا إلى هذه البغية استطاعوا أن يتبينوا المدنية الهندية القديمة والديانة المحلية وما امتزج بهما وطغى عليهما من مدنية الفاتحين وديانتهم . أما الآن فأكثر ما يقال فى هذا الصدد لا يعدو دائرة الفرض والتخمين .

على أن أهم ما يلفت النظر فى الاكتشافات الحديثة للآثار الهندية القديمة هو أنه قد عثر على بعض تماثيل يرجع تاريخها إلى عهد المدنية الأولى ، ولكنها تشبه كل الشبه تمثال الإله «سيفا» الذى هو من آلهة عهد الاحتلال « الآرى » ، وكذلك عثر المكتشفون على رموز يرجع تاريخها إلى القرن الثلاثين قبل المسيح ، وهى لا تزال حية فى الديانة الحديثة حياة قوية .

ويستنتج الباحثون من هذا أن الإله « سيفا » ليس إلا إلها محلياً قديماً لونه الفاتحون بلون جديد ثم أقروه فى الديانة المحدثة ، كما أن تلك الرموز الحية فى الديانة « الهندوآرية » هى بعينها الرموز الوطنية القديمة . وينجم عن هذا أن تكون الديانة الهندية المستحدثة بعد « البراهمانية الأرثوذوكسية » مزيجا من الديانة المحلية المندثرة والديانة « الهندوآرية » ولكنه كان مزيجاً مجهولا لدى الهنود أنفسهم ولدى جميع العلماء والمؤرخين حتى ظهرت استكشافات « بانيرجى » الأخيرة

وتدل دراسة الديانة الهندية بوجه عام على أن الهند هى بعد مصر البقعة الثانية التى يصح أن يطلق عليها اسم أرض الآلهة والتى لا يفوقها فى كثرة آلهتها وتعقد مشاكلها الدينية وصعوبة تحديد اختصاص الآلهة وسعة الخيال وخصوبته فى تصوير المعبودات إلا بلاد الفراعنة

الديانة المحلية

لم يصل الاكتشاف الحديث بعد إلى الدرجة التى يصح معها للباحث الدقيق - كما أسلفنا - أن يصدر حكما جازماً على الديانة المحلية التى سبقت عهد الاحتلال « الآرى » إذ قد رأيت تناقض العلماء وتضارب آرائهم فى هذا الموضوع حيث يقرر فريق منهم أن الوطنيين الأولين كانوا أرقى عقلية وأعظم مدنية من الفاتحين . ويذهب فريق آخر إلى العكس فيقرر أنهم كانوا بطونا متناثرة وقبائل متفرقة لا تربطهم مدنية اجتماعية ولا تجمعهم وحدة سياسية ، ولكن الذى لا ريب فيه هو أن أولئك القوم كان لهم ديانة مهما تبلغ من السذاجة فان لها قيمة تاريخية لا يصح للمشتغلين بتاريخ العقلية الانسانية أن يهملوها . وتتلخص هذه الديانة فى أن النار كانت هى المعبودة المقدسة التى تقدم اليها الضحايا والقرابين من لحوم مشوية وخمور معتقة وألبان وخبز وأعشاب صالحة للأكل أو للتخمير إلى غير ذلك ، وأن كهنة النار الذين كانوا يتولون إيقادها كان لهم بين أفراد الشعب مكانة رفيعة وإجلال مفروض . وقد كان هؤلاء الكهنة سدنة للنار وسحرة وأساتذة فنيين يعلمون الشعب طقوس الدين وأركان العبادة .